" الأنا " و" الآخر " وإشكالية الانتماء للوطن
رواية "وطن من زجاج" لياسمينة صالح أنموذجا

يمينة حمداني (ج.الشلف)

الأنا والآخر مولودان معا ، وهذا ما يقرره علماء الاجتماع وعلماء النفس فالصورة التي نتخيلها عن أنفسنا لا تتم بمعزل عن صورة الآخر لدينا ، كما أن صورة الآخر لدينا هي بمعنى من المعاني صورة عن ذواتنا[1].فاستخدام أي منهما يستدعي – تلقائيا – حضور الآخر .

و بالرجوع إلى الفلسفة الأوربية الحديثة والتي هي أساس فلسفة الذات فإن مقولة **كوجيتو ديكارت** الشهيرة – **أنا أفكر إذا أنا موجود** – تعني أن وجود الأنا سابق عن أي وجود آخر .

ومن هنا كان كل وجود غير وجود " الأنا " هو الآخر وبالتالي فعلاقة التعابير هي علاقة بين " الأنا " و"الآخر " .

إن المطلع على قواميس الفكر الأوربي ومصطلحاته الفلسفية ، يعلم أن الآخر هو مقابل للذات le méme أو " الأنا " . أما هذه الأخيرة فلا معنى لها سوى أنها مقابل للآخر Autre أو أنها المطابق لنفسه المعبر عنها بـــ Identité وهو ما يترجم اليوم بلفظة " الهوية " أي كون الشيء هو نفسه[2].

1– علاقة ايجابية :

يرى فيها " الأنا " الواقع الثقافي الأجنبي أي الآخر متفوقا بصورة مطلقة على الثقافة الوطنية الأصلية بمعنى أن الأنا أقل مرتبة من الآخر فيصور ذلك في مؤلفاته ، وذلك نتيجة الهوس والانبهار بالآخر ، فيقدم صورة الأجنبي على حساب الصورة الحقيقة له ، وهناك بعض الكتاب العرب انبهروا بالنموذج الغربي للحياة (الحرية والديمقراطية) فمجدوا الحضارة الغربية وتجاهلوا مشكلاتها .كما أننا نلمس هذا عند السيدة **دي ستال** من خلال الصورة التي رسمتها حول ألمانيا ، بأن شعبها يتمتع بمناقب عدة كالطيبة الاستقامة ، الصدق ، إضافة إلى غنى الأدب الألماني فهي موطن **جوتيه** ، **شيلر** و**شيلجل** والمستوى الرفيع الذي بلغته الفلسفة الألمانية[3].

2- علاقة سلبية **:**

تكون علاقة " الأنا " بـــ "الآخر" علاقة سلبية في حالة عداء الأنا للآخر ، حيث أن العلاقات العدائية بين الشعوب تؤدي إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر المعادي[4] ، فتبرز ذلك من خلال الواقع الثقافي لذلك البلد فـــ " الأنا " يصور الآخر ، وعليه فـــ" الأنا " و" الآخر" تربط بينهما علاقات ، إما علاقة سلبية وإما إيجابية ، وإما تماثلية (علاقة تسامح) ، في صورة أدنى منه ومثال ذلك : صورة الأوربي في الأدب العربي مشوهة في كثير من الأحيان ، فيصور المستعمر على أنه إنسان عدائي غير أخلاقي ، مستبد وظالم .

وأيضا صورة الشرق لدى الأدب الفرنسي ، حيث يصور الفرنسيين أهل الشرق في العصور الوسطى التي سادت فيها النزاعات الدينية ، بأنهم وثنيين لا أخلاق لهم ، سرعان ما ينهزمون أما الأبطال المسيحيين ونجد هذه الصورة في أغنية رولان بارت ومسرحية القديسة نيقولا .[5]

3- علاقة التسامح (التماثل) **:**

تنطلق دراسة الصورة من رؤية متوازنة للذات " الأنا " و" الآخر " إذ نجد التسامح في هذا هو الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي ، إذ يصور الأجنبي ويعيد تفسيره عبر

رؤية موضوعية ، فهو يستغني عن الهوس والانبهار (ينفي الاستعارة عن الآخر)، وبذلك يعتبر التسامح طريقا صعبا يمر عبر الاعتراف بالآخر حيث تتعايش " الأنا " مع " الآخر " وتراه نداً لها غير مختلف عنها ومثال ذلك محاولة أمين معلوف في مد جسر التواصل والتسامح بين الشرق والغرب وفتح مجال الحوار بينهما [6] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن صورة الذات وصورة الآخر قابلتان للتغيير والتبديل والتطوير ، على رغم ما يبدو عليها من سكونية كما أن الصورة التي تشكلها لذواتنا وللآخرين يختلط فيها الواقعي والمثالي غالبا ويتمازج فيها البعد الداخلي (أي رؤيتنا لحقيقة أنفسنا) مع البعد الخارجي (أي ما نريد إظهاره للآخرين من صفات خاصة بنا) ، ومن الممكن أيضا أن تتشكل لدينا صورة انتقائية للآخر نرغب بتثبيتها في أذهاننا ونغيب صورة أخرى عنه.

وقد شكلت العلاقة بالآخر الأساس الأهم في إنتاج صورة للذات ، وتحولت إلى موضوع علمي فضلا عن تحولها إلى موضوع إبداعي .

يهدف تحليل رواية **وطن من زجاج** للكاتبة الجزائرية ياسمينة صالح إلى الكشف عن ملامح كل من صورة الذات وصورة الآخر المحلي والغربي – باعتبار أن كل واحد منهما هو وليد الآخر – كما هي مرسومة في نسيج الخطاب الروائي .

و يصب هذا الهدف في هدف آخر أشمل وهو الوقوف على الدلالة العامة للرواية ككل .

1- صورة الأنا (الذات) في رواية وطن من زجاج :

في رواية وطن من زجاج لسنا إزاء وجه واحد لصورة الذات ، بل بإزاء عدة أوجه هي : صورة الذات الفردية ممثلة في ذات البطل / الراوي ، وثلاث صور للذات الجماعية (النحن) وهي صورة جماعة المناضلين وصورة الفلاحين وصورة المثقفين ، وفي عالم الرواية (**وطن من زجاج**) تتمفصل هذه الصور وتتداخل ، وفي بعض الأحيان تصير

إحداها صورة للآخر في مواجهة صورة أخرى وفي عرضنا لملامح كل من هذه الصور سوف نعمد على ما تتضمنه الرواية من شخوص ومواقف وسنوضح ذلك في هذه الرسيمة :

مخطط يوضح تمثل الأنا في رواية وطن من زجاج

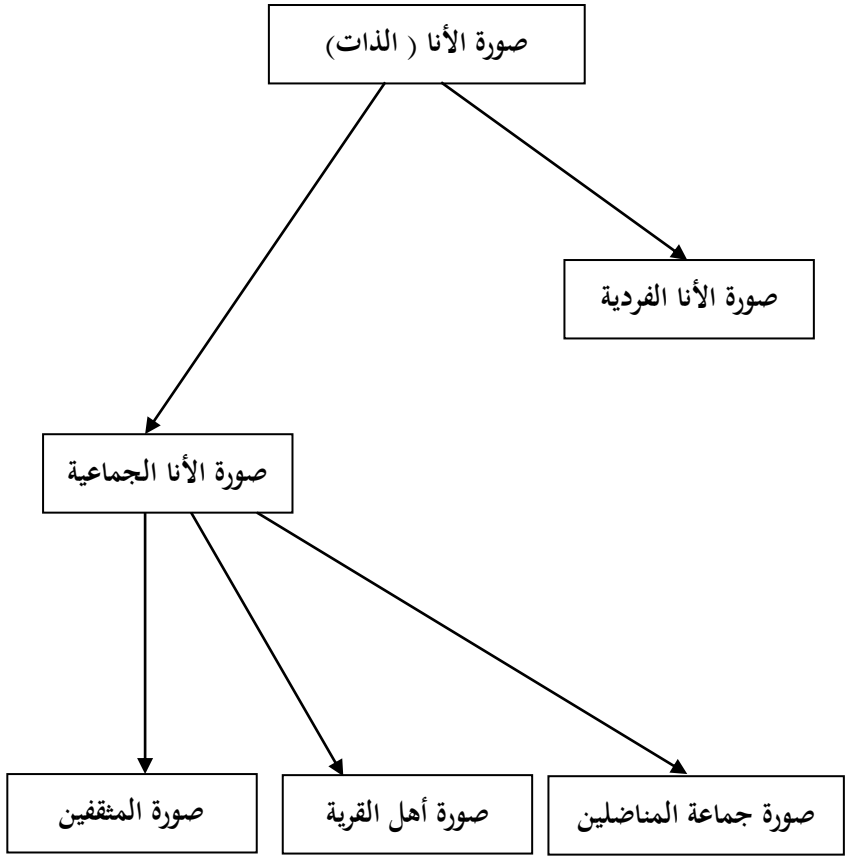

أ – صورة الذات الفردية (الأنا) :

وهي صورة البطل / الراوي ، والتي لم تشأ ياسمينة صالح الإفصاح عن اسمه، هو شاب في الثلاثينات من عمره ، من أصل ريفي ، درس في مدارس القرية ، لاحقه النحس والشؤم والموت منذ ساعة مولده ، ولعل ذلك كان سببا في نعته باسم "لاكامورا" «**مع الوقت صار الناس يطلقون عليّ لقبا غريبا : لاكامورا ! شيئا فشيئا فهمت أن لاكامورا تعني ببساطة من لا حق له في الموت براحة !** » [7] اتسمت ذات الراوي / البطل بالتشظي وعدم الاتزان والاكتمال .

حيث وجد نفسه محبطا خائبا ، والبلد سائر نحو الكارثة ، ومع ذلك واصل دراسته الجامعية بجد ومثابرة ربما للتعويض عما في داخله من نقص وهباء أسس له بعض الصداقات مع زملائه من طلبة الجامعة ، لكنه ظل وفيا على سمو خلقه ونقاوة مبادئه ، فلم يتورط كالباقين في لهو أو تحشيش أو دعارة وكان يراقب مقدرا التفاوت بين سائر الطلبة وباقي المحظوظين من أولاد المترفين ، ممن يملكون الشقق الخاصة والسيارات الفخمة.

يكمل البطل الخائب دراسته الجامعية ، ويبحث عن عمل ، ليكون محررا في إحدى الصحف ، أجبره الواقع القاسي المؤلم أن يبحث عن سند له يخفف عنه ضغط معاناته وحدّة الصدمة التي لم يكن يتوقعها في العاصمة التي لم يجد فيها سوى البؤس والخراب واليأس والموت على الطرقات ، لم يبحث عن أبيه الذي اختفى في ظروف غامضة ، وإنما عن المعلم الذي أحبه والذي كان يعوضه جزئيا عن الأم والأب اللذان فقدهما ، وعن النذير صديق الطفولة وأخته التي لم يستطع عقله نسيانها، تغير خط مسار حياة البطل بعد التقائه بالنذير وشقيقته بشكل جوهري ليرتبط مصيره بشقيقه النذير.

فيرى الراوي أن اللحظة التي سيراها فيها هي بداية المحاولة للخروج من أزمته التي لازمته سنوات وللتواصل مع العالم ، وهو يسعى إلى دفع هذه المحاولة حتى نهايتها على

أمل التجاوز ، ودفع حالة الإحباط إلى الوراء ، لكن صورة ذات البطل في الرواية تكتسب نوعا من الانكسار في صفحاتها الأخيرة بقرار رحيل البطل والتي بعثت في نفس القارئ نوعا من التساؤل عن مصير هذا البطل ، وبتلاعب فني راقي نزعت ياسمينة صالح ستار الشؤم واليأس ببراعة عن ذات البطل بعدم رحليه وعودة شقيقه النذير إليه ، لينمو الأمل وسط اليأس والخراب والدمار ، وتتزاح العتمة ليحل محلها النور.

ب – صورة الذات الجماعية (النحن) **:**

لا تتشكل صورة الذات الجماعية (النحن) في الرواية من مكون واحد ، بل من عدة مكونات أو صور فرعية ، لا يمكن إدراكها جملة واحدة ، وإنما هي في حالة انفصال ، وتلعب في تركيبها متغيرات عديدة مكانية وزمانية ، وتاريخية وثقافية ، ونفسية واجتماعية ، يدركها القارئ في نص الرواية .

أولـــــى هذه الصور هي **صورة المناضلين** أو المدافعين عن الوطن أيام الاستعمار الفرنسي وبعده ، ممن كان يجالسهم الراوي / البطل في المقاهي ليسردوا له تاريخهم النضالي ، أمثال **عمي العربي** و**الرشيد** ، حيث تتوطد عُرى الصداقة بينهم ، فنعرف الكثير عن تفاصيل العمليات الاحتثاثية التي نفذها كلاهما ضد عناصر مرصودة من خدم المستعمرين .

لكن هل يمكن القول إن هذه الصورة هي صورة نمطية لأحوال المناضلين الجزائريين أيام الاستعمار الفرنسي على الجزائر ؟

الواقع أن ياسمينة صالح ليست هي الكاتبة الوحيدة من بين الكتّاب الجزائريين ولاسيما العرب والغرب الذين صوّروا لنا الأوضاع التي عايشها المواطن والمجاهد الجزائري إبّان وبعد الاستعمار الفرنسي على الجزائر.

و إنما نحن نجد هذه الصور وغيرها في العديد من الروايات والقصص .

عمي العربي صديق الراوي / البطل رجل وطني مقدس للأرض التي حوته طيلة حياته بالرغم من قساوة الحياة التي عاشها منذ أن أبصرت عيناه الدنيا ، إذ يقول : «**الوطن حقيقة يجب الإيمان بها يا بني الوطن ليس رئيس جمهورية وليس الحكومة وليس الغيلان السياسيين ... ولا المفقودين ولا الخونة ولا الإرهابيين ... الوطن هو ما نتنفسه وما نستشعره .... هو الأعشاب التي نمشي عليها والعصافير التي توقظنا في الصباح ، والمطر الذي يباغتنا عن غير موعد ، والتحايا البسيطة التي لا نستوعب قيمتها إلا متأخرين** »[8]

فبالرغم من التهميش الذي تعرّض له بعد الاستقلال ، وفقده لنفائس الحياة إلا أن قلبه لا يزال ينبض حبا للوطن .

أما الرشيد صديق البطل ، والذي كان صديقا بالدرجة الأولى لعمي العربي كما تقول المقولة "صديق الصديق صديق " ، رجل شديد الحرص على القيام بواجبه الوطني «**لم يكن الرشيد استثنائيا لكنه كان عاديا وبسيطا ومنصاعا إلى الواجب بشكل عجيب** »[9] لدرجة أنه قدّم نفسه فداء للوطن ، إذ تمّ قتله أثناء أدائه لواجبه الوطني في مطاردته لبعض الإرهابيين ، تاركا وراءه والدته وخطيبته يقول عمي العربي : « **أجل يا صديقي مات الرشيد أمس مع زميلين له مات مبتسما كمن يتحرر أخيرا من كذبة الوطن والناس .... »**[10]

أما الصورة الثانية من صور الذات الجماعية ، فهي صورة **أهل القرية** التي ينتمي إليها البطل ، هؤلاء يمثلون للبطل عالمه في مرحلة طفولته وأصله الذي نبت فيه ، فهم الجماعة التي يرى فيها أمنه « **كان المعلم يبتسم لي بطريقة مختلفة ، ويمد يده إليّ ويمسكني من يدي ... يدي التي كانت تثير "عطف" الآخرين عليها والتي عبرها أتلمس حدود المشاعر في.نفسية من كان يتعاطف معي ... »**[11].

إن قطاعا كبيرا من هذه الصورة يكونه شرح البطل لعالم القرية ولتاريخها وسكانها ، إنه يتحدث كإخباري عليم عايش أهل القرية وأدرك مشكلاتها « ... **كانوا يعودون للعمل في أراضي الآخرين مقابل ما ينالونه من فتات يومي ، وإهانة مزمنة ...** »[12] أثناء حديثه عن أهل القرية من فلاحين ، فضلا عن حديثه مع نفسه ، والذي كان مشحونا بآلام البشر وبمعاني الموت ، وبالظلم الذي يتعرض له أهل القرية حتى بعد مماتهم .

والصورة الثالثة للذات الجماعية (النحن) هي **صورة المثقفين** الشبان من أصدقاء الراوي ، إنهم شركاؤه بالإحباط والضياع لكنهم مشدودون إلى عالم الصحافة والأدب يبحثون عن الأخبار في أي مكان على الرغم من خطورته لكتابة مقالاتهم ونشرها على الصحف لكنهم غير مترابطين ، فلكل عالمه الخاص وكل يعيش أزمته تقول الكاتبة " **كانت سيارتنا الصحفية متوجهة إلى تلك القرية متبوعة بسيارة أمن ذهبنا لنغطي افتتاح مدرسة لم نعثر فيها على أمل قابل للحديث عنه لا شيء سوى رائحة الدم والموت القابع في عيون من بقوا من أطفال كنا مطالبين بكتابة تحقيق عن المجزرة والمدرسة ووجدتني لا أفعل سوى التقاط صورة** "[13] لم تكن ياسمينة صالح الروائية الوحيدة من بين الكتاب الذين صوروا الأزمة الدموية في فترة التسعينات التي عاشها المجتمع الجزائري في تلك الفترة والمثقف على وجه خاص ، وإنما نحن نجد هذه الصور والأحداث في روايات وقصص عديدة صورت لنا حجم الكارثة .

محور الآخر في رواية وطن من زجاج :

نوظف مفهومي " الذات البديل " أو " الذات النقيض " كمفهومين بديلين لمفهومي " الأنا والآخر" لأننا لاحظنا من خلال دراستنا أن محور الذوات المتناولة في هذا العمل هي ذوات محلية ، كانت تشكل تاريخيا وثقافيا الذات الجزائرية ، فصورة الآخر في الجزائر تعدّت مفهوم الصورة المشوهة عن الآخر المناقضة للانا لتعطي لنا بعدا جديدا

يقوم على أساس تقسيم الذات الواحدة إلى عدة ذوات ، لتصبح أنا وآخر في نفس الوقت ، وهي الذات الممزقة ، بسبب اللعنة التي أصابت المجتمع الجزائري والذي أصبح يعاني من خلالها عداءً مجانيا بين ذاته وضميره الجمعي ، هذا العداء الذي أخذ الطابع العنيف بين فئات المجتمع التي كانت تنتمي لقيم عقائدية وثقافية مشتركة [14]

فمنذ عام 1988 بدأ المجتمع الجزائري ينقسم على نفسه ويأخذ الطابع العنيف والعداء النفسي بين فئات مجتمعه التي كانت تنتمي لنفس القيم العقائدية والثقافية ، ويمكن إرجاع هذا الانقسام أو المفهوم التدميري والعدائي بين الذوات إلى :

1-التجربة التاريخية التي عرفها المجتمع الجزائري ما بين 1932-1962 من خلال الجرائم التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي، والتي خلفت تمزقا دينيا واجتماعيا وثقافيا في الأوساط الجزائرية والتي رسخت أفكارا سلبية مشوهة بين أفراد الوطن .

2- توظيف الممارسة الثقافية المتعالية لبعض الفئات الاجتماعية والتي كثيرا ما تتجاهل القيم الأساسية المكونة للمجتمع الجزائري .

و التي يمكن أن نمثلها في المخطط التالي :

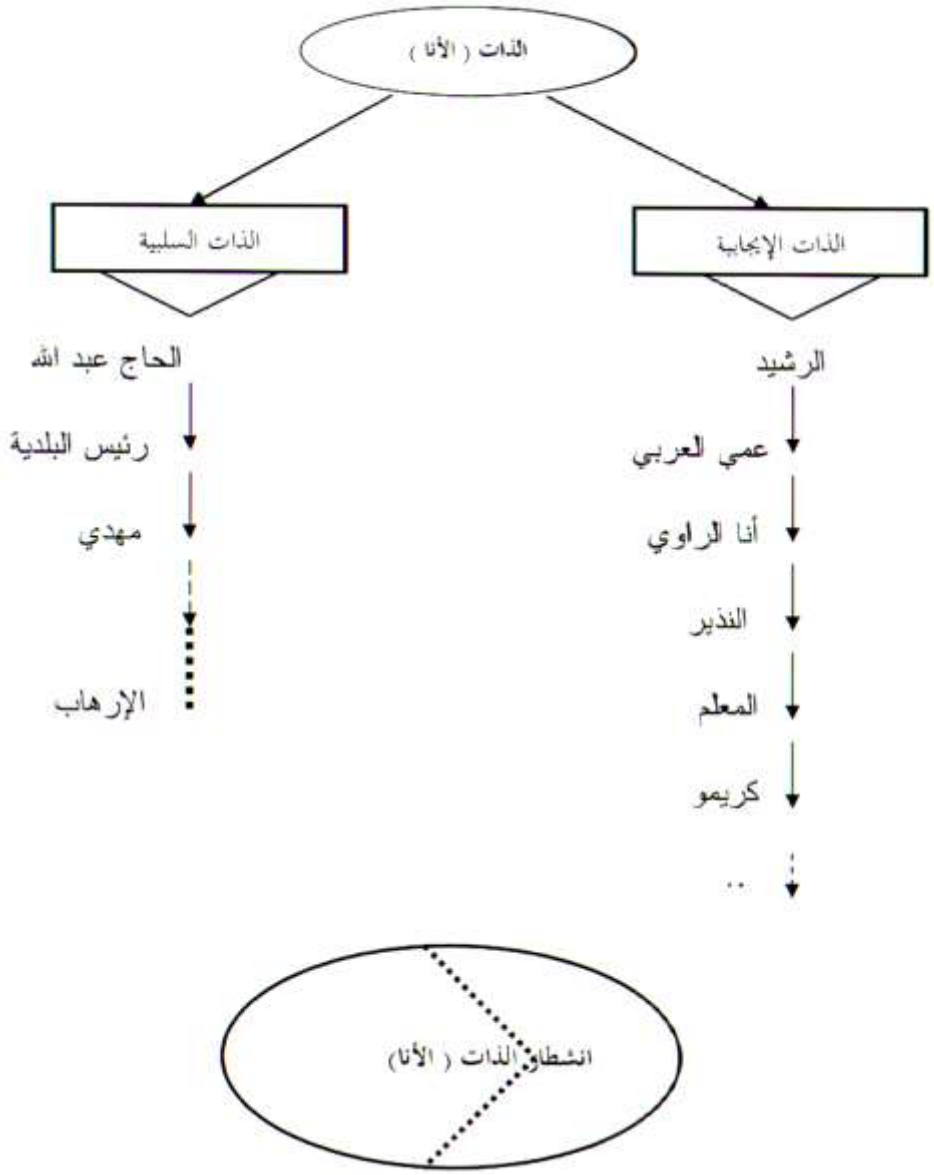
الذات (الأنا)
الذات السلبية
الذات الإيجابية
الحاج عبد الله
رئيس البلدية
مهدي
الإرهاب
الرشيد
عمي العربي
أنا الراوي
النذير
المعلم
كريمو
..
انشطار الذات (الأنا)

وقبل الحديث عن محور الآخر في رواية وطن من زجاج لا بد لنا من تحديد صور الآخرية التي كانت سببا في ظهور الآخر الإرهاب والذي يمثل محور الرواية

صـــورة الآخر الاستعاري:

يحضر الآخر الاستعماري في رواية وطن من زجاج بصورة مقتضبة في بداية الأحداث ، كون الرواية لا تركز على الآخر الغربي ، بقدر ما تركز على الإرهاب ، لذا تبنت ياسمينة صالح النظر إلى الغرب ، كفترة من فترات الحروب والأزمات وكقوة فرنسية طاغية متواجدة في قطر عربي ، وللإشارة ، فإن دراسة صورة الغربي في الرواية العربية والرواية الجزائرية على الخصوص، قد تناوله الكثير من الكتاب والدارسين .

يبدأ الحديث عن الآخر الفرنسي في الحكايات التي يرويها «عمي العربي » بدءاً من الصفحات الأولى في الرواية ، حيث تصور الأحداث في مجملها واقع البلاد أثناء الاستعمار ، فلا يخفى على أحد أن الاستعمار الفرنسي طمس كل ما هو جزائري يُنم إلى الانتماء للثقافة العربية والشخصية الإسلامية ، لذا جاءت صورة الفرنسي مشوهة مترجمة وقاحته ودناءته ، وبراعته في الظلم والتنكيل بالجزائري ، حيث يقول الراوي على لسان عمي العربي" ذلك اليوم من شهر أكتوبر ...التاريخ الذي اقتحم فيه الجنود الفرنسيين مترلهم ، كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها العربي الصغير جنودا فرنسيين وجها لوجه..." 15لم يكتف الاستعمار بهذا الحد من الظلم والجور بل ويواصل التمادي في إذلال الجزائريين ، والدوس على كرامتهم " كان الجنود يوجهون الأسئلة لوالده بنفس العصبية والصراخ ثم ينهالون عليه ضربا ...ثم بسرعة مخيفة اقتادوا والده خارج البيت .." 16.

فهذه الأوضاع وأخرى صنعت من العربي الصغير ومن الطفل الجزائري شابا مقاوما حيث سرعان ما أدرك الواجب الذي ينتظره ، فانخرط في الخلية السرية التابعة

لجبهة التحرير ، حاملا تلك الضغينة ، وكل أنواع الكره للفرنسي التي يحملها أي شاب جزائري .

فتصوير الروائية لصورة الآخر الاستعماري ، لا تختلف كثيرا عن الصور التي أدرجها بعض الروائيين في نظرهم للمستعمر كـ " رواية موسم الهجرة إلى الشمال لطيب صالح 1970 ورواية الأشجار واغتيال مرزوق لعبد الرحمن منيف 1973 وتشرق غربا لليلى الأطرش 1987 " 17 وغيرها من الروايات ، وإن اختلفت في النظر إلى جنسية الآخر المستعمر ، إلا أننا نجدها تشترك في صورة واحدة ووحيدة وهي تصوير استبداد وظلم ولا إنسانية هذا الآخر .

الآخر الساسة المترفون وأبناؤهم :

إن عرض حجم الكارثة ، والمدى المفتوح على القتل والرعب الذي عاشته الجزائر إبان الاستعمار في الرواية ، كان أدعا إلى تصوير فئة أخرى كانت تقف كتيار لا مبالي ، وغير مهتم بالتغيير نحو الأفضل ، فكان أبناء الساسة المترفين طبقة عريضة ، ولربما موازية لشعب مغلوب على أمره أمام المجازر والنكبات والانفلات الأمني المتكرر ، لذا صورت الرواية هذه الطبقة كآخر غير مهتم بصفة مباشرة فيما يكابده الشعب من أوضاع ، هذا ما يبدو جليا في عدة صفات من الرواية ، أهمها ما ورد في وصف الطلبة الجامعيين وكيفية استعمالهم لنفوذ آبائهم " كان بعض الطلبة يعتبرون أنفسهم استثنائيين بموجب تلك السيارات الخاصة التي يركبونها وبموجب مواقعهم الاجتماعية كأبناء "الأسياد" ..." 18

وتستمر ياسمينة صالح في تصوير تلك الطبقة في قولها " ويشهرون تلك البطاقة الصغيرة التي تقول أن والده " مدير عام مؤسسة وطنية كبيرة " أو مسؤول كبير في جهاز الدولة .....كانوا يتباهون برتب آبائهم أكثر مما يتباهون بآبائهم أنفسهم..."19.

فهذه النخبة وبالأخص الساسة أو حكام البلاد ، لم يكن يعنيهم ما يحدث للشعب من هلع وخوف جراء جرائم القتل والاغتيالات التي كانت تقوم بها الجماعات الإرهابية المسلحة ، فكان همهم الوحيد النجاة بجلدهم وإرسال أبنائهم إلى الخارج ، بمعنى الهروب من الواقع وليس التغيير ،فمرة أخرى تسلط ياسمينة صالح الضوء على الفساد السياسي والإداري ممثلا في تهرب المسؤولين وعدم القيام بمهامهم على أحسن وجه، فبينما الشعب الجزائري غارق في الدماء وأمام واقع جزائريمنطقه ولغته الرصاص الإرهابي ، كان رصاص الآخر والقاتل فعلا ، هو رصاص الضغينة والخوف والهلع اتجاه الوطن واتجاه المسؤولين الذين لم يحركوا ساكنا تقول " كان الوطن يغني أغنيات الراي الشهيرة ، ويرقص على جثث القتلى ، كان الوطن ينظم مهرجانات الأغنية الدولية ....كان الوطن يجامل الأجانب على حساب أبناء البلد ... يدفع لهم بالعملة الصعبة كي يغنون في جزائر الشرف ..." 20.ثم تواصل تصويرها لهم " الطلبة الذين يجيئون إلى الجامعة بسياراتهم الرياضية الفخمة التي يقودونها بسرعة تحديا لشرطي المرور الذي حين يوقفهم عن واجب ، يتناول السائق جواله ويتصل بأبيه القائد .....ليجد الشرطي نفسه محكوما بتهمة "إهانة أبناء الأسياد " " 21 .

فالكل كان يعي أن الشعب وحده يتجرع المرارة حد الثمالة أمام مرأى السلطة، ولعل أصدق عبارة دالة على ذلك هي ما ورد على لسان المهدي بالعامية قائلا " إيه يا خويا ، اللي داروها راهم مخبيين رأسهم ، أولادهم راهم في فرنسا والإنجليز ، إحنا اللي نموت في بلاصتهم !! 22

كما تواصل الكاتبة في توضيح صورة الآخر بالنسبة للشعب الجزائري ، وتورد جبن وخوف هذه النخبة أمام الإعلام والصحافة التي كانت تكشف تلاعباتهم ووقاحة أعمالهم وتنصلهم من مهامهم ، وكيف كانوا يسعدون باغتيال رجال الإعلام الذين طالتهم الجماعات الإرهابية وكأنهم كانوا متواطئين معهم ، في قولها "... ربما لأن الكتابة

في تلك الظروف كانت وقاحة فعلا في نظر السادة والرجال المحترمين ، لأنها تحولت لأول مرة إلى إدانة مباشرة ...." 23.

تلفيقــات الغرب:

باعتبار أن رواية وطن من زجاج كانت ثورة على ديكتاتورية السلطة وبيروقراطية الدولة وإدانة للقتلة الرسميين (الإرهاب) ، كانت أيضا التفاتة إلى آخر من نوع خاص وهو تلفيقات الغرب الذي استغل الانكسار اليومي والوضع السلبي في الجزائر بغرض تشويه سمة هويتها وضربها في الصميم فكتبت ياسمينة صالح استغلال الصحافة للوضع قائلة " ... الصحف الأجنبية التي كانت تجد متعة رهيبة في البصق علينا باسم حرية التعبير .."24.

ولعل أبرز دليل على تسويف الغرب للجريمة والمجزرة الجزائرية ما ورد في قصة شراء الممثلة لتقوم بدور الضحية " هذه الصورة وزعتها مؤسسة إعلامية رسمية .... واش من تفاصيل يا صاحبي . هذه المرأة "خرطي " صورة ملفقة . ألم تقرأ ما كتب عنها ؟ لقد التقطها مصور تابع لوكالة أنباء أجنبية يبدو أن المرأة ممثلة طلب منها أن تلعب دور ا في مجزرة !" 25 .

ونقطة أخرى كشفت عنها الكاتبة تبرز فيها الحقيقة السلبية عن الغرب الذي يدّعي الحضارة والإنسانية ، ورفع الشعارات الجاهزة التي ترمي إلى حقوق الإنسان وحرية التعبير وكذا حق الشعوب في تقرير مصيرها .

فقد كشفت عن خلفية سلبية ومثال ذلك قمع فرنسا للطلبة المغاربة المتضامنين مع فلسطين " كان الطلبة يومها مصممين على التظاهر سلميا ...و فجأة ... في لحظة لم يتوقعها أحد بدأت الشرطة تحاول تفريق الطلبة بالقوة ...بسرعة تكلمت القنابل المسيلة للدموع ، وانطلقت الكلاب البوليسية في نهش لحم الطلبة ..." 26فهذه الحادثة تشبه إلى

حد ما مجازر 8 ماي 1945 حين خرج الشعب الجزائري الأعزل مذكرا فرنسا للوفاء بوعدها فقمعته بطريقة شنيعة ، فكانت تلك المجازر دليلا على خيانة وغدر فرنسا في الجزائر .

الآخر الإرهـــــــاب:

إن إدراج ظاهرة الإرهاب في الكتابة الروائية بدأت منذ التسعينات وجاءت بشكل صريح في رواية " الطاهر وطار العشق والموت في الزمن الحراشي " 27

فالإرهاب كان محور رواية وطن من زجاج إن لم يكن كلها ، وبالتالي كانت الرواية محاولة للتأريخ . تأريخ الجرح الدامي بكل العري الذي فيه ، فالرواية تعاملت مع قضية سياسية ، لأن الإرهاب ليس حدثا بسيطا في حياة المجتمع " فهو لا يقاس بالمدة التي استغرقها ولا بعدد الجرائم التي يقترفها بل بتلك الفضاعة ودرجة الوحشية ، وعندما يتعلق الأمر بالجزائر ، فإن الإرهاب تقاس خطورته بتلك المقاييس جميعا ، إذ أنه استغرق مدة قصيرة ، لكنه ارتكب جرائم كبيرة بفضاعة وهمجية بليغة" 28 .

صدرت الرواية عام 2006 ، وهذا يعني أنها كَتبت بعد انتهاء الأحداث الإرهابية الساخنة لتقف الرواية على الآثار الجسيمة التي خلفتها تلك الفترة ، فالكاتبة من جهتها لا تلصق هذه الجرائم إلى جهة بعينها ، بل تحاول إظهار نتائجها على ضحية واحدة اسمها "لاكامورا" وهي رمز للشعب الجزائـــري .

تبدأ تداعيات الرواية ، بخبر اغتيال الرشيد ، بقولها " ... مات الرشيد في اشتباكات حين كان يطارد جماعة مسلحة ...." 29، فالرشيد الذي كان يعمل شرطيا ، اغتاله المتطرفون ، أو المسلحون أو المتمردون كما نعتتهم ياسمينة صالح في الرواية ، وكلها ألفاظ لآخر واحد ، وهو الإرهاب .

فالذي اغتيل هنا هو الشرطي ، والذي يمثل رمز الأمن والسلطة والاستقرار، فالإرهابي عندما يصوب رصاصته صوب الشرطي ، إنما يريد بذلك فرض حالة من اللاأمن وعدم الاستقرار ، وبالتالي الفوضى والبلبلة والانفلاتات في البلاد.

تواصل ياسمينة صالح في وصف وحشية وفضاعة هذا الآخر ، الذي يضرب بلا تمييز بين النخبة وعامة الناس من أطفال وشيوخ ونساء مستعرضة في ذلك الوسائل المختلفة التي يستعملها في القتل، من رمي بالرصاص، ذبح، إحراق المنشآت والمدارس، وكذا التفجيرات المختلفة وغيرها .

ومن صور ذلك الحوار الذي دار بين الصحفي وصديقه " ... هل سمعت بالقنبلة التي انفجرت في مقهى la rose في العاصمة ..." 30و هذه دلالة على أن المجازر كانت تطال أيضا الأماكن الشعبية التي يرتادها الأبرياء من المواطنين .

ومن الصور أيضا قولها "... أتذكر يوم ذهبنا إلى إحدى المدارس في منطقة تعرّض سكانها إلى مجزرة لم ينج منها إلا القليل ... لم نعثر على أمل قابل للحديث عنه ... كان هناك طفل قالوا أن الجماعة الإرهابية اغتالت كل أفراد عائلته ، وأنه هو الوحيد الذي في لحظة رعب قررت أمه أن تخفيه في كيس الدقيق ..." 31

فالإرهاب أضر بكل شرائح المجتمع ، فيتم الأطفال ، ورمل وثكل النساء، و مرة أخرى تواصل الروائية تصوير الكوارث والوجع اليومي للناس الأبرياء حيث تقول ".... أذكر أيضا يوم ذهبنا إلى قرية في ضواحي مدينة (المدية) هاجمها المسلحون وقتلوا ثلاثين شخصا من أفرادها ... كانت المجزرة أشبه برسم كاريكاتوري يومي ....أتذكر ذلك الشيخ الذي وجدناه يبكي على عائلته لم يبق منها أحد .... "32. فالمجزرة هذه لا تختلف عن مثيلاتها في كل أنحاء البلاد في المدن والأرياف ، فأينما وليّت وجهك إلا وثمة وجه للرعب والجزع ، وملامح للخوف والهلع.

هكذا كان الآخر وفي زمن آخر ، هكذا كان القتلة المجرمين الذين جعلوا من أنفسهم الناطق الرسمي باسم الموت في هذه البلاد .

ومن الفجيعة والجريمة اليومية كانت فئة أخرى مستهدفة وهي رجال الإعلام، حيث تروي أحداث الرواية كيف كانت تصل رسائل التهديد للصحفيين ، وهو أسلوب آخر جبان للإرهاب " هذه الرسالة الرابعة التي تصلنا هذا الأسبوع ...كنت أعرف ما فيها ... أتصور شكل الحروف التي كتبت بها، واللون الأحمر الشبيه بالدم ، وقطعة القماش الأبيض..." 33

إذ ترصد لنا الرواية كيف أن هذه الفئة كانت تعاني الأمرين في الوصول إلى بيوتها خوفا من أيادي الغدر التي كانت تتربص بهم في كل مكان ، فتذكر الروائية الطريقة التي كان يذهب بها النذير – وهو صحفي – إلى زيارة أهله " .... حين يغلبه الشوق ، يتسلل إلى حيه القديم وينط عبر الأسطح العتيقة ، من سطح إلى سطح كلص محترف ، كي لا يراه قاتل يتربص به ... " 34 .

هكذا إذن كانت يوميات النذير وغيره من الصحفيين الذين اغتيلوا رميا بالرصاص ، فالضحية هذه المرة رجال الإعلام . فالإرهاب عندما استهدفها إنما استهدف رمزا آخر ، فهم الذين يَطلعون العامة بالأحداث والمستجدات وهم بدورهم أيضا رمز للحرية والتعددية إلى حد ما .

ومرة أخرى ، وبين الآلام والقلب المكتظ بالكراهية ، تضيف الكاتبة تلك الطرق البشعة في التنكيل بجثث القتلى قائلة :" ...الجثث التي يعثرون على بعضها مقطوعة الرأس فيضطرون إلى البحث عن الرأس لساعات أحيانا لا يجدون حلا سوى في تركيبه على جثة أخرى .... ذات مرة ... تم إضافة رأس امرأة إلى جثة رجل ...واضعين على القبر جثة شخصين مختلفين لم يتم التعرف على رأس المرأة ولا على جثة الرجل "35.

و تواصل الكاتبة في قراءة يوميات المواطنين البسطاء الذين يعيشون بين الحزن تارة والضغينة تارة أخرى في ترقبهم للشتات والوجع ، والتصحر الأمني وفي تذمرهم للوضع الذي هم فيه .

وإذا كنا قد كشفنا عن أبرز ملامح صورة الذات وصورة الآخر كما تبدو في نص الرواية ، فإننا ينبغي ألا نقف عند هذه الملامح في حد ذاتها ، بل يجب تجاوز ذلك إلى تأمل المعنى الذي يكمن وراء تجلي هذه الملامح ، وهو المعنى الذي يحمله كل أدب عظيم ، وكل من يرتبط بهذا الأدب قراءً كانوا أم كتابا ، والذي يمثل في السعي والنضال من أجل تحقيق قيم أصيلة في عالم تتحقق فيه حاجات الإنسان ومطامحه ، عن طريق التفاعل الحر بعيدا عن الخوف والقهر .

الهوامش والإحالات :

1 – ينظر : فتحي أبو العينين ، بحث بعنوان صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي تحليل سيسيولوجي لرواية محاولة الخروج ، منشور في كتاب صورة الآخر العربي ، ص 811، 812، 813.

2– ينظر : ماريو فرانسوا غويار ، الأدب المقارن، تر: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت لبنان، دط، د ت ص 132، 133.

3 – ينظر: ماريو فرانسوا غويار ، الأدب المقارن ، ص 132، 133.

4 – نظر : ماجدة حمود ، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، ص 120.

5 – ينظر: محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ص 422

6 – ينظر : ماجدة حمود ، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن ، ص 120

7– ياسمينة صالح ، رواية وطن من زجاج ، دار الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2006 ، ص 37

8 – ياسمينة صالح ، ر وطن من زجاج ، ص 11.

9 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 9.

10– ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ،ص7.

11– ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص33

12 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 30

13 – نفس المرجع ، ص 72.

14– ينظر: عروس الزبير بحث منشور في كتاب صورة الآخر ،العربي ناظرا ومنظورا إليه ، ص 659.. 660. 661..

15 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 14 .

16 – نفس المرجع ، ص 23.

17 – نجم عبد الله كاظم ، الرواية العربية المعاصرة والآخر – دراسات أدبية مقارنة –، علم الكتب الحديث ، ط1 1427، 2007 ص 73.

18 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 48

19 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 49

20 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 74.

21 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 85.

22 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 51–52

23 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 57

24 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 58

25 –ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 76

26 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 132.

27 – الطاهر وطار ، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي

28 – معلوف عامر، الرواية والتحولات في الجزئر ، ص 92

29 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، 7

30 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 51.

31 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 71.

32 – نفس المرجع ، نفس الصفحة

33 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 86.

34 – ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 89.

35– ياسمينة صالح ، وطن من زجاج ، ص 78.